و لكن كونـوا ربانيين

الشيخ سلمان العودة حفظه الله

1413/2/6 - الأسياح

إن الحمد لله، نحمده حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحبُّ ويرضى، فله الحمد بالإسلام وله الحمد بالإيمان وله الحمد بالقرآن، وله الحمد حتى يرضى وله الحمد إذا رضي هو أهل التقوى وأهل المغفرة .

وأصلّي وأسلّمُ صلاةً وتسليماً دائمين إلى يوم الدين على نبيه ومصطفاه من خلقه، نبينا محمّد النبيّ الأمّي الذي يؤمن بالله وكلماته، حمل الرسالة وأدّى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده، فصلى الله عليه وسلم، ما ترك خيراً يدل إلى الجنة ويبعد من النار إلا بيَّنه وأمرنا به، ولا شرَّاً إلا بيَّنه وحذرنا منه، حتى تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك .

و جزاه الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته، فقد أبلى فينا البلاء الحسن وسهر ليله وتعب نهاره وشاب شعره وأنهك جسمه ولقي الأمرين من أجل أن يصلنا الدين نقيَّاً مصفَّى، {**قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ** } ..

أما بعـد ،

فهذه الليلة هي ليلةُ الثلاثاء السادس من شهر صفر من السنة الثالثة عشرة بعد الأربعمائة والألف من الهجرة، وعنوان هذه الجلسة جزءٌ من كتاب الله عز وجل من سورة آل عمران "ولكن كونوا ربانيين" ، قال تعالى :

{ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ } .

من مصائب الأمة أيها الأحبَّة ، الجهل ، و طالما تمرَّغت الأمة في ظُلُمات الجهل بعيداً عن هدى ربها وسنة نبيها صلى الله عليه وسلم، ولكن لا يقلُّ عن الجهل مصيبة، العلم المؤسَّس على غير هدى ولا كتابٍ منير .

فنحن لا بدَّ أن نحارب الجهل، ولكن لا بدَّ أيضاً أن يكون العلم الذي ندعو إليه علماً مؤسَّساً على الأصول الشرعية الصحيحة، علماً مقرِّباً إلى الله عز وجل .

وطالما رأت الأمة شباباً كما وصفهم أحد الإخوة لي في رسالة بعثها يقول : " إن بعض الشباب في البلاد الإسلامية كان أحدهم إذا استيقظ في آخر الليل يدير مؤشر الراديو قبل أن يفتح الصنبور، يتوضأ لصلاة الفجر " !

فلا شك أن مراجعة المسيرة وتصحيح الخطأ والدعوة إلى التوازن من أهم المقاصد التي يحرص عليها الصالحون والمصلحون، إننا نعلم أن الجاهل قد يقبل التعليم، فإذا كان جاهلاً جهلاً بسيطاً لا يعرف مثلاً متى وقعت معركة بدر، فقلتَ له : وقعت معركة بدر في السنة السادسة للهجرة، كان من الصعب تعديل هذا العلم الخاطئ الموجود لديه ، بل هو جهل مركَّب !

إذن فالجاهل قد يتعلم، لكن الذي يرى نفسه عالماً قد يكون من الصعب أن يتقبل من غيره .

هذه الآية الكريمة فيها الحديث عن صنف من العلماء ، وصفهم الله عز و جل بأنهم ربانيون ، و معنى الآية أن الله تعالى نفى أن يكون لبشر من البشر – النبي أو الرسول – أن الله يمنحه الكتاب و الحكم و النبوة ثم يقوم هذا النبي ليقول للناس كونوا عباداً لي ، لا ، فالنبي لا يدعو الناس إلى عبادة نفسه ، و إنما يدعوهم إلى الله ، فيقول للناس : " **كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ** " ، لا يأمرهم بغير ذلك ، فلا يأمرهم بعبادة نفسه و لا يأمرهم أيضاً بأن يتخذوا الملائكة و النبيين الآخرين أرباباً من دون الله عز و جل ، و كيف يأمرهم بالكفر و هو إنما جاء و بعث بالإسلام ؟

ربانيون ، أي منسوبونَ إلى الرب ، و قد ذكره ابن الأنباري عن النحويين و هو على كل حال نسبةٌ على غير قياس كما يقال شعراني .

ربانيون ، وصلوا إلى الدرجة العليا و المقام الأعلى في العلم و التربية ، إذن الربانية لا تطلق على الإنسان المبتدئ في العلم الذي حضر لتوه مجالس الذكر و التعليم ، لا ، و إن كانت البوادر قد تظهر عليه منذ صغره في تقواه و ورعهِ و تحرِّيهِ عن الحرام و حرصِهِ على العمل ، لكنَّه إنما يوصف بالربانية العالمُ الراسخُ في علمِهِ كالأئمةِ الأربعةِ مثلاً ، و المجدِّدين عبر العصور ، فإنهم يُطلق عليهم أنهم ربانيون .

ربانيون ، أي حكماءُ علماءُ حلماءُ ، كما ذكره ابن كثير و غيره عن ابن عباس رضي الله عنه .

ربانيون ، أي فقهاء ، كما ذكره ابن كثير و غيره أيضاً عن الحسن البصري و غير واحدٍ من السلف .

ربانيون ، أي أهل عبادة و تقوى ، كما هو قول الحسن أيضاً .

و هؤلاء تعرفُ فيهم صفات :

الصفة الأولى / العلــم

{ **وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ** } ، هكذا قرأها جمهور القراء ، " **تَعْلَمُونَ** " بالفتح، إذن هم علماء وهذه من أخص صفاتهم، " **وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ** " ، إذن هم أساتذة وشيوخ وفقهاء ومفتون، أقبلوا على علم الشريعة ، علم الكتاب والسنة ، فرفعهم الله تعالى به .

قال تعالى : " **يرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُواْ العِلْمَ دَرَجَاتٍ** " ، و قال سبحانه : " **شهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَ المَلائِكَةُ وَ أُولُوْا العِلْمِ** " ، فقرن أولي العلم وأشهدهم على ذلك مع ملائكته ومع ذاته المقدسة ، فدل على قدرهم ، و قال عز و جل : " **فاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ** " ، فبدأ بالعلم قبل القول و العمل .

هم علماء ، و العلم حياة ، و لهذا قال الشاعر :

أخو العلم حيٌ خالدٌ بعـدَ موتِهِ *** و أوصالهُ تحتَ التُّرابِ رَمِيمُ
و ذو الجهلِ مَيْتٌ وهو ماشٍ عَلَى الثَّرى*** يُظَنُّ مِنَ الأَحيَاءِ و هو عَدِيمُ

و قال آخر :

و في الجهلِ قبلَ الموتِ موتٌ لأهلهِ *** و أجسامهمْ قبلَ القبورِ قبورُ
و أرواحهمْ في وَحشةٍ من جسومهمْ *** و ليسَ لهم حَتَّى النشورِ نشورُ

فهم أمواتٌ غير أحياء بجهلهم، ولو كانت أسماؤهم على كل لسان ، فأنت اليوم مثلاً لو سألناك عن أعظم عالمٍ في القرن السادس الهجري و أوائل السابع ، لقلت : شيخ الإسلام ابن تيمية ، فأصبح يعرفه الكبير و الصغير ، لكن لو سألناك مثلاً من هم تجار ذلك القرن ، هل تعرفهم ؟ و من هم قواد الجيش في ذلك القرن ؟ و من هم أصحاب السلطة و الجاه في ذلك القرن بأسمائهم ؟ قد لا تعرفهم ، لكن ابن تيمية من الذي لا يعرفه ؟ كلما تقدم الزمن زادت شهرته و مكانته ، حتى إن مكانته اليوم – و أجزم بهذا – عند المسلمين أعظم بكثيرٍ من مكانته يوم كان حياً يتحرك بينهم ، ففي ذلك الوقت كان خصومه كثير ، حاربوه و أحرقوا كتبه و كادوا له ، حتى وقع في غياهب السجون و منعت فتاواه زماناً ، بل و كادوا أن يضربوه في بعض المناسبات ..

لكن اليوم أبى الله عز و جل إلا أن يظهر حقَّه على باطلهم ، و ماتوا و بقي ابن تيمية حياً .

يا رُبَّ حيٍّ رُخامُ القّبرِ مَسكنُهُ *** و رُبَّ مَيْتٍ عَلَى أقدامِهِ انتصَبَا

ملايين من الناس اليوم ، في الوظائف و الأسماء و التجارات و الأعمال لا يعرفهم أحد ، و لا يحزن عليهم إن ماتوا أحد !

و الغريب أن العلم الشرعي بالذات على رغم هذه المكانة ، لا يختاره إلا القليل ، لأن أمام طلبه عقباتٌ و عقباتٌ تنقصمَ لها الظهورَ و تنكسرَ الأعناقُ ، و العجيب أيضاً أن العالم يكون موضع عتب من الناس فيما قد ينسبونه إليه من تقصير ، أو يظنونه فيه من قول أو فعل ، فهم يلومونه و يقولون : " العالم الفلاني غفر الله له ، عنده أرضٌ في المكان الفلاني ، و العالم الفلاني سمع المنكر و لم يغيره ، و مرة من المرات فعل كذا و كذا و أغلظ في القول لرجلٍ عنده " ، فيعدون عليه أخطاء فعلها ، يظنونها أخطاء ، و هي قد لا تكون كذلك ، و قد تكون من خطأ البشر ، فنقول لهم ، نوافقكم على ذلك ، هبوا أن ما تقولونه عن هذا العالم – الذي هو فعلا عالمٌ – صحيحٌ و أنه أخطأ ! :

و مَن ذَا الَّذِي تُرضَى سَجَايَاه كلُّها ** كفى المرءَ نُبْلاً أن تُعَدَّ معايبُهْ !

هذا العالم عددتم له أخطاء ، خمسة أو عشرة ، لكن أنا و أنت و فلان و علان ، من يحصي أخطاءنا ؟

وقف رجل يوماً المنبر فتكلم ، فقام إليه أحد الحضور و سأله سؤالاً ، فقال : لا أدري ! قال : تصعد المنبر و أنت لا تدري ؟ ، قال : **إنما علوتُ بقدر علمي ، و لو علوت بقدر جهلي لبلغتُ عنان السماء !**

أقول : يعتبون على هذا العالم في خمسة أخطاء أو عشرة ، يظنونها أخطاء وقع فيها هذا العالم ، و لكن ننسى أننا ملومون على مسألة أكبر ، و هي لماذا كان هذا عالماً و لم نكن نحن علماء ؟ لماذا تركنا نحن التعلم و التعليم ؟

بعضنا لعله معذور لم يعطه الله تعالى الآلة من الذكاء و الفهم و الفطنة ، و قد يكون بعضنا لم تتيسر له أسباب تحصيل العلم ، و قد يكون بعضنا في بلادٍ بعيدةٍ و نائيةٍ لم يستطع أن يتعلم ، دعك من هؤلاء كلهم ، لكن كثيرون تمكنوا و عندهم عقلٌ و ذكاءٌ و فطنةٌ و حفظ ، و الأسباب أمامهم ميسورة مبسوطة ، و مع ذلك لم يتعلموا !

أحيانا يخطر في ذهني سؤال ، العلماء المشاهير ، أمثال ابن باز و ناصر الدين الألباني و ابن عثيمين و ابن جبرين ، أين زملاؤهم على مقاعد الدراسة أو في مجالس طلب العلم ؟ و مثلهم علماء في البلاد الإسلامية كلها بطولها و عرضها !

لقد كان كل واحد منهم يوماً طالباً في حلقةٍ له فيها على الأقل عشرون زميلاً ، أين هم ؟ أكثرهم تأخروا عن الركب ، و بقي هو وحيداً في الساحة ، لأنه أصر على طلب العلم و أصر على المواصلة ، أما هم فكثيرٌ منهم قد يكونون يشغلون وظائف عادية كغيرهم من الناس ، لا يتميَّزون عنهم بشيء إلا أن الواحد منهم ربما تمدَّح في المجالس و قال : أنا من زملاء فلان و علان !

طيب إذا كنت من زملائه لماذا لم تكن مثله ؟ و لم تعمل عمله ؟ هو تلقى العلم مثل ما تلقيت ، فلماذا ظهر هو و خفيت أنت ؟ و نفع هو و لم تنفع أنت ؟

ذكر ابن القيم رحمه الله عن الشافعي أنه إذا رأى رجلاً سأل عنه ، فإن كان صاحب علمٍ و عملٍ تركه ، و إلا عاتبه الشافعي عتاباً مرَّاً و قال له : " **لا جزاك الله خيراً ، لا عن نفسك و لا عن الإسلام ، ضيَّعتَ نفسك و ضيَّعتَ الإسلام !!**" .

انظروا ، الشافعي رجل مؤدب ، و لكنه كان يحترق قلبه فيغلظ في العتاب ، و العتاب يزيل الوحشة بين الأحباب ، فقد كان من الممكن أن يصبح عالماً يشار إليه بالبنان و يرفع الله به الجهل عن أمة من الناس ، و لكن لم يكن هذا إلا لتقصيره !

و الغريب في الأمر أنك لم تكتف بالتقصير ، بل زدتَ على ذلك أن توجِّه سهام اللوم و العتب إلى من قطعوا هذا المشوار الذي عجزت أنت عن قطعه !

إذن لا بدَّ من الدعوة إلى العلم ، فالعلم خير كله ، حتى الكلاب المعلمة فضَّلها الله عز و جل : { **مكلبينَ تُعَلِّمُونَهُنَ مِمَّا عَلَّمَكُمُ الله ، فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكنَ عَلَيكُمْ** } ، فالكلب المعلم يتميز في الصيد عن الكلب غير المعلم ، فكيف بالإنسان الذي فضله الله تعالى و اختاره و اصطفاه ؟

{ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** }

الصفة الثانية / الاتبـاع

ليس العلم الذي يتعلمه العالم ، هو قال فلان و قال علان ، لا ، إنما هو علم الكتاب !

و لهذا قال في الآية " **وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ** " ، أي الكتاب المنزل من الله تعالى على رسله و أنبيائه عليهم السلام .

إذن فالمقصود بالعلم ، هو العلم الشرعي المنبثق من الوحي ، الكتاب و السنة ، قال صلى الله عليه و سلم فيما رواه أبو داود و أحمد و غيرهما بسند صحيح : " **ألا إني أوتيت القرآن و مثله معه** " .

فالعلم إما آيةٌ محكمةٌ أو حديثٌ صحيحٌ أو إجماعٌ قائم :

العلمُ قالَ اللهُ قالَ رسولُهُ *** قالَ الصَّحابةُ لَيسَ بِالتَّمْوِيهِ

مَا العلمُ نصبُكَ للخلافِ سفاهَةً *** بينَ الرَّسُولِ و بينَ رأيِ فقيهِ

العلمُ قالَ اللهُ قالَ رسولُهُ *** قالَ الصَّحابةُ هُم أُولوا العِرفَانِ

يقول الإمام ابن رجب رحمه الله تعالى : " **العلم النافع من هذه العلوم كلها ضبطُ نصوصِ الكتاب و السنة و فهمُ معانيها و التقيُّدُ في ذلكِ بالمأثور** " .

كلام قصيرٌ يغني عن كثير ، لأن العلوم الآن كثيرة عند الناس ، فيحتار المرء : ماذا أتعلم ؟ بماذا أبدأ ؟ نقول عليك بعلم الكتاب و علم السنة ، فلا تأتي لنا بمعنى لم تسبق إليه ، " **لا تقل في مسألةٍ ليس لك فيها إمام** " كما قال الإمام أحمد رحمه الله .

و حين نقول الكتاب و السنة ، فهما يشهد بعضهما لبعض ، و الرسول صلى الله عليه و سلم كان شارحاً و مفسِّراً للقرآن بقوله و فعله ، فأما بقوله فإن السنة تبين القرآن و تفصل مجمله و توضح معانيه ، و أما بفعله فقد سئلت عائشةَ رضي الله عنها كما في صحيح مسلم عن خلق النبي صلى الله عليه و سلم فقالت للسائل : **ألست تقرأ القرآن** ؟ قال : بلى ، قالت : " **كان خلقه القرآن** " .

فأفعاله صلى الله عليه و سلم كانت تفسيراً للقرآن و لهذا وصفه بعضهم بأنه كان قرآناً يدبُّ على وجه الأرض ، و هذه الكلمة و إن كان فيها تسامحٌ و مجاز إلا أنها تعبير دقيقٌ و جيّدٌ عن أخلاق الرسول صلى الله عليه و سلم و أفعاله و أقواله .

و هذا هو الفقه حقَّاً ، القرآنُ و السنةُ و فهمُ معانيهما ، و أما أقوال الرجال فلا تعدو أن تكون تفسيراً للقرآن و تفسيراً للحديث ، و لا ينبغي أن يشتغلَ الإنسان بها إلا بقدرِ ما تكون بياناً لهذا أو ذاك .

و لهذا لما تشاغل الناسُ بأقوالِ الرجالِ ظهر مصطلح أهل الفقه و أهل الحديث و تميَّزا ، و الواقع أنهما شيءٌ واحد ، ما الفقه إلا علمُ الكتابِ و

السنةِ حفظاً و فهماً و علماً و عملاً ، و لذلك أنكر الأئمة كابن الجوزيّ و الخطابيّ و غيرهم التفريق بين أهل الفقه و أهل الحديث ، بل هما شيءٌ واحد . و لم يعتبر العلماء رحمهم الله أن المقلِّد تقليداً محضاً عالم ، حتى قال ابن عبد البَرْ : " **أجمعوا على أن المقلِّد لا يعد من العلماء** " ، و قال الإمام ابن القيّم رحمه الله : " **العلم هو المعرفة الحاصلة بالدليل** " ، و الدليل آية أو حديث أو إجماع ، فهذا هو العلم ، أما كونك سمعتَ فلاناً يفتي بكذا ، و فلاناً يقول كذا ، فهذا لا يُعدُّ علماً و إنما هو تقليدٌ قد يُعذر به الجاهل الذي لا يستطيع إلا التقليد ، أما طالب العلم فلا .

الصفة الثالثة / الإخلاص و النيَّة :

يقول الرسول صلى الله عليه و سلم في حديث عمر المتفق عليه : " **إنَّما الأعمال بالنيات** " ، و يقول أيضاً في الحديث الآخر المتفق عليه عن ابن عباس و غيره : " **لا هجرة بعد الفتح و لكن جهادٌ و نية** " ، أي يعبد الله تعالى بالنية الصالحة : { **من كَانَ يُرِيدُ الحياةَ الدُّنيا وَ زِينَتَهَا** – بنيته و قصده – **نوفِّ إِلَيهِم أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَ هُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيسَ لَهُمْ في الآَخِرَةِ إلاَّ النَّار** } .

و قال : { **من كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلنَا لَه فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُرِيدَ ، ثُمَّ جَعَلنَا لَهُ جَهَنَّمَ** } .

و يقول الزهري – و هو من خيار التابعين – : " **ما عُبدَ الله بشيءٍ أفضلَ من العلم** " ، إذن و أنت تتناول العلم حفظاً أو دراسةً أو تأليفاً أو تعليماً فأنت تعبد الله تعالى بهذا .

و يقول سفيان الثوري : " **لا أعلم بعد النُّبوة أفضل من العلم** " ، لأن العالم هو وريث النبي ، و الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً و لا درهماً و لكن ورَّثوا العلم .

جاء أبو هريرة رضي الله عنه إلى أهل السوق و هم يتبايعون و يتشارَون ، فقال : " **أنتم هاهنا و ميراث النبي صلى الله عليه و سلم يُقسَم في المسجد** ؟ " فتركوا بضائعهم و ذهبوا يتراكضون إلى المسجد ، فدخلوا و ما وجدوا إلا حلقةً هنا تعلِّم التفسير ، و أخرى تعلِّم الحديث ، فرجعوا و قالوا : يا أبا هريرة غفر الله لك ، ما رأينا شيئاً ! ، قال : **أوَ ذهبتم** ؟ قالوا : نعم ، قال : **فماذا رأيتم** ؟ قالوا : رأينا قوما يعلِّمونَ القرآن و قوماً يعلِّمون التفسير و قوماً يعلِّمون الحديث ! قال : **و هل ميراثُ رسول الله صلى الله عليه و سلم إلا هذا ؟؟** " .

و يقول ابن وهب – و هو من تلاميذ الإمام مالك – : "كنتُ عند مالك و قد نشر كتبه يقرأ و يعلِّم و يبيِّن ، فأذَّن المؤذِّن ، فذهبت أجمع هذه الكتب من أجل أن يذهب بها ، فقال الإمام مالك : **على رسلك ! ترفَّق ! ليس الذي تقوم إليه** – يعني من التنفل قبل الفريضة – **بأفضل مما تقوم عنه إذا صحَّت النية** " .

إذن فالعلم عبادة ، و لا بدَّ لطالبِ العلم و هو يتناول العلم من أن يشعر بأنه يتعبَّد الله تعالى و يتقرَّب إليه بالتعرُّف على حكمهِ في المسائل و التعرُّفِ إليه جلَّ و علا بأسمائه و صفاته و أفعاله ، و التعرُّف إلى أنبيائه بمعرفتهم و معرفة حقوقهم و ما أشبه ذلك من ألوان العلم و صنوفه .

و هذا الوصف ، وصف الإخلاص و النية هو من أخص معاني الربانية { **وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ** } ، أي إرادة وجه الرب تبارك و تعالى فيأخذ الإنسان و يدع ، و بها يبارك الله تعالى في العلم و بها يثمر العلم و ينفع .

و أنت تجد الذين نفع الله تعالى بعلمهم ليسوا بالضرورة هم أذكى الناس و لا أكبر الناس عقولاً ، و لا أكثر الناس علماً أيضاً ، و لكن بارك الله تعالى في علمهم و نفع الله به لأنه كان فيه الإخلاص ، و هناك علمٌ غزيرٌ و لكن ما فيه روحٌ و لا إيمانٌ و لا إخلاصٌ ، فلم يباركِ الله تعالى فيه ، فقلَّ المنتفعون به .

الصفة الرابعة / خلق العلم و أدبه

و ذلك بالسَّمْتِ و الوقارِ غير المتكلَّف و القدوة في ذلك هو الرسول صلى الله عليه و سلم حيث كان أعظم العلماء على الإطلاق ، و مع ذلك إذا وجدْتَ هديه و أدبه و معاملته للناس تجد أمراً يعجز عنه الآخرون ، و هذا من خصائصه صلى الله عليه و سلم التي ميَّزه الله تعالى بها .

ففي مجال العلم هو البحر لا يدركُ ساحله ، لكنَّك تجده أيضاً متواضعاً مع أصحابه يمازحهم و يضاحكهم و يأخذ معهم ، حتى ربما تكلموا بأمر الجاهلية فيضحكون و يتبسم عليه الصلاة و السلام .

و قد كان له من الهيبة و الوقار في نفوسهم الشيء العظيم ، حتى إنه سها يوماً من الأيام في صلاته كما جاء في الصحيحين و سلم صلاة الظهر أو العصر من ركعتين ، فلم يجرؤوا على أن يقولوا : سهوتَ يا رسول الله ! حتى أبو بكر و عمر أخص أصحابه هابا أن يكلماه ، حتى قام رجل يقال له ذو اليدين ، و قال : يا رسول الله أ قصرت الصلاة أم نسيتَ ؟ قال : **لا ما نسيتُ و لم تقصر** ، قال : بل نسيت ! فقال : **أكما يقول ذو اليدين** ؟ قالوا : نعم ، فاستقبل القبلة و صلَّى ركعتين ثم سلَّم ثم سجد للسهو ثم سلم عليه الصلاة و السلام .

الصفة الخامسة / مخالطةُ الناس بالحسنى :

من الأخلاق التي ينبغي أن يتحلى بها الربانيون مخالطة الناس بالحسنى ، و التخلُّق معهم بالخلق الفاضل ، لقوله تعالى : { **بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمونَ الْكِتَابَ** } أي تعلِّمون الناس ، و كيف تعلِّمونهم و أنتم في أبراجكم العاجية ؟ و كيف تعلِّمونهم و أنتم في مكتباتكم ؟ و كيف تعلِّمونهم و أنتم تغلقون في وجوههم أبوابكم ؟ و كيف تعلِّمونهم و أنتم معتزلون منعزلون عنهم ؟

هذا لا يكون ، فلا بد من مخالطة الناس ، و قد جاء في حديث عند أصحاب السنن و هو صحيح عن ابن عمر أو غيره أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : " **المؤمن الذي يخالط الناس و يصبرُ على آذاهم خيرٌ من الذي لا يخالط النَّاسَ و لا يصبر على آذاهم** " .

إذن لا بد من مخالطة الناس مخالطةً فيها اقتصاد ، فيعطيهم قدراً من وقته ، نحن لا نقول للعالم دعْ أعمالك و علمك و مشاغلك و أمورك ، و تفرَّغ للناس ، لا ، هذا لا يكون و لا يطالبُ به أحد بل هو مما لا يستطاع ، لكن لا بد أن يخصِّص للناس أوقاتاً يعطيهم فيها مما أعطاه الله تعالى و يَفرُغُ فيها لأمورهم و همومهم و شؤونهم .

و من عجيب و بديع ما قاله الإمام ابن القيم رحمه الله أنه قَسَّم الناس في المخالطة إلى أربعة أصناف ، قال : " **فمن النَّاس من مخالطته كالغذاء** ، و هذا هو العالم الربَّاني الذي تخالطه لا لتضيع عليه وقته ، و لكن لتستفيد من علمه ، **الثاني من مخالطته كالدواء ، إنما تتعاطاه عند الحاجة إليه** ، و هذا هو الإنسان الذي تستفيد منه في أمر معاشك ، **و من الناس من مخالطته كالداء** ، و الداء كما تعلم أنواع ، منها مرضٌ عضالٌ لا يشفى منه الإنسان ، و منها أمراض كوجع الضرس ، بمجرد ما تقلع الضرس يزول المرض و هذا مثل الإنسان الذي مخالطته تؤذيك بسيئ القول ، فإذا غادرته زال الألم ، فالضرس كذلك إذا قلعته زال الألم ، و من الأمراض الحمَّى ، التي لا تكاد تفارق الإنسان ، و من ذلك كما ذكر مخالطة الإنسان الثقيل الذي لا هو بالذي

يتكلم فتستفيد و لا بالذي يسكت فيستفيد هو ، فلا يفيد و لا يستفيد ! **و من الناس من مخالطته هي الموتُ بعينه** ، و هو الإنسان الذي يضرُّك في دينك إما بضلالة أو ببدعة " .

فعليك أن تختار لنفسك و تعلم أن فضول المخالطة لا خير فيها ، يكثر القيل و القال و الغيبة و المجاملة و التصنع ، و ربما كان طول المخالطة سبباً في المباعدة و المفارقة و اكتشاف العيوب ، فيتحول ذلك إلى نوع من العداوة ، و لهذا جاء في حديث روي مرفوعا عند الترمذي و غيره و روي موقوفا على علي رضي الله عنه و هو أشبه، أنه قال : " **أحْبِبْ حبيبكَ هوناً ما، عسى أن يكونَ بغيضَكَ يوماً ماً، وأبغِضْ بغيضَكَ هوناً ما، عسى أن يكونَ حبيبك يوماً ماً** " . أي اقتصد في الحبِّ و البغض و المخالطة و العزلة .

إذن العالم الربَّاني ليست مهمته التعامل مع الكتب فقط ، فتلك وظيفة سهلة ، و لكن مهمته قيادة الناس إلى ربهم عز و جل و توجيههم و مشاركتهم في آلامهم و مشاكلهم أفراحهم و أتراحهم ، و أن يكون قريباً من نفوسهم و قلوبهم .

و لا يجوز أن تخلو الساحة من العلماء العالِمين العاملين المخلصين ، لأن خلوَّها أتاح الفرصة للأشرار الذين رفعوا يوما من الأيام لواءَ الدفاع عن المرأة أو ما يسمونه " تحرير المرأة " ، فأفسدوا نساء المسلمين باسم الدفاع عن حقوقهنّ ! فلماذا لا يتولى أمر الدفاع عن المرأة العلماء العاملون المخلصون ، فيدافعون

عن المرأة ضد كل ظلمٍ أو ضيمٍ يقع عليها دفاعاً بالشرع لا بالهوى ، و يكسبون المرأة إلى صف الإسلام و المسلمين ؟؟

و هم أيضا الأشرار الذين تبنوا قضايا الأطفال و النشء و أعدوا لهم البرامج و الكتب و غير ذلك ، فربوهم على غير هدي الله و هدي رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فلماذا لا يتولى أمر الدفاع عن قضايا الطفل ، العلماء العاملون المخلصون أو من يلوذ بهم و يسمع كلمتهم ، حتى يربوا الأطفال على المنهج الصحيح ، منهج الكتاب و السنة ؟؟

و الأشرار الذين ادعوا أنهم ينادون بتصحيح أوضاع العمال و الدفاع عنهم و رفعوا راية " يا عمال العالم اتحدوا " ، فضلُّوا و أضلُّوا ، و لا شك أن العمال لن يجدوا من يدافع عنهم أصدق لهجةً و أصح منهجاً من حملة الكتاب و السنة لو تصدَّوا لهذا و اهتموا به ، و دافعوا عن حقوق العمال بالحقِّ لا بالباطل .

الأشرار الذين طالبوا بتحسين الأوضاع المعيشية للناس فتبعهم في ذلك الفقراء كمثل سرابٍ يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، و لماذا لا يكون العلماء الربانيون هم المدافعون المتولون لشؤون الناس من الفقراء و العمال و المظلومين و غيرهم ؟

و لماذا يذهب الأشرار بمجتمعات المسلمين و يبقى العالِم منعزلاً في بيته أو مكتبته لا يدري ما الناس عليه من خيرٍ أو شرٍّ ، و لا يدري الناس أيضاً هذه العلوم التي يتعاطاها أي شيء تكون ؟

بل بلغ الأمر أنه في وقت من الأوقات في مجتمعات المسلمين كانت بعض وسائل الإعلام تتناول العالم بالسخرية به فتظهر هذه السخرية في التلفاز أو في كاريكاتير ينشر في جريدة أو في مقرر مدرسي ، فلا يجد العالم من يغضب له ، لأنه ترك مجال المجتمعات للأشرار !

و آلافُ النَّاس في كل بلادِ الإسلامِ عندهم عاطفةٌ دينيةٌ ، و لو أن أحداً تناولَ الرسول صلى الله عليه و سلم مثلاً لوجدت الغضب ! لماذا ؟ لأنهم يحبون الرسول صلى الله عليه و سلم ، فدلَّ على أن أصلَ هذه العاطفة الدينية موجود ، و لكنها تحتاج إلى بعثٍ و إثارةٍ و تحريك ، و الذي يستطيع ذلك هو العالم الذي يتكلم فيسمع الناس متى أقام الجسور بينه و بينهم ، إذن لا بد من المخالطة على منهاج النبوة .

الصفة السادسة / العزة بهذا العلم

و الترفع عن الأعراض الدنيوية ، و لهذا الله عز و جل قال في الآية نفسها : { **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ** } ، فالذي أوتي الكتاب و أوتي الحكم و أوتي النبوة ، ماذا ينظر إلى الدنيا ؟

خذوا كل دنياكمُ و اتركوا *** فؤاديَ حرَّاً طليقاً حبيباً
فإنيَ أعظمكـمْ ثروةً *** و إن خِلتُموني وحيداً سليباً

فالعالم الذي أوتي الكتاب و الحكم ، يرى أن أهل الدنيا في واد و هو في واد آخر ، مثل ما كان يقول ابن تيمية رحمه الله : " **ماذا يصنع أعدائي بي ، سجني خلوة ، و نفيي سياحة ، و قتلي شهادة** " !!

و العزُّ بن عبد السلام لما قيل له قبل رأس السلطان من أجل أن يسامحك و يعفو عنك تبسم و قال : (**مساكين ! أنت في وادٍ و أنا في واد !! أنا ما أرضى أن يقبلَ السلطانُ رأسي فكيف أقبِّل رأسَه ؟؟**) !

و سيد قطب رحمه الله ، لما قيل له اكتب كلمةَ اعتذارٍ واحدة و نعفو عنك من الإعدام قال : (**إن السبَّابة التي تشهد ألا إله إلا الله ، لا يمكن أن تكتب كلمةَ اعتذارٍ واحدةٍ تقرُّ بها حكمَ طاغية !!**)

فالذي أوتي الكتاب و أوتي العلم و أوتي الحكمة يترفَّعُ عن أعراض الدنيا و سفاسفها .

ثم إن الله تعالى يقول : { **وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ** } ، أي منسوبون إلى الرب ، والربانيون هم من أهل الآخرة ، قد يملكون الدنيا بمالٍ أو غيره ، و لكنها عندهم مثل الفراش الذي يقعد عليه ومثل الحمار الذي يركبه ، يستخدمه ولا يخدمه، أي يستخدمون الدنيا ولا يخدمونها ، فهم ليسوا عبيداً لها، ولهذا ازدروا الدنيا ورأوا أنها ليست أهلاً لأن يريقوا شرفهم من أجلها .

هذا الشافعي يقول :

و من يَذُقِ الدُّنيا فإني طعمتُها *** و سيق إلينا عذبُها و عذابُها

فما هي إلا جيفةٌ مستحيلةٌ *** عليها كلابٌ همهنَّ اجتذابُها
فإن تجتنبها كنتَ سِلْماً لأهلها *** و إن تجتذبها نازعتكَ كلابُها

" **دلني على عملٍ إذا عملته أحبني الله و أحبَّني النـاس** " ، " **ازهد في الدُّنيا يحبُّكَ الله و ازهد فيما عندَ النَّاس يحبُّك النـاس** " ...

فتكسب محبة الله تعالى و محبة خلقه بأن تجعل الدنيا تحت قدميك ، و مع ذلك سوف تكون من أحسن الناس دنياً ، فأي قيمة لأموالٍ طائلةٍ موجودة في الرصيد لأي إنسان و هو يقتِّر على نفسه و ولده ؟؟

هذه العزة أيضا و الترفُّع ، تُكسِبَ الإنسان هيبةً عند العامَّة و الخاصة ، لأنهم يعرفون علوَّ همَّة هذا الإنسان ، و أنه ينظر إليهم فيرثي لحالهم ، و يعرفون أيضا أن هذا الإنسان من الصعب أن يُصطاد !

و لهذا وضع بعض الخلفاء للعلماء طُعماً ، يعني من الدنيا ، فأعطى هذا أرضاً ، و ذاك مالاً ، و الآخر ولايةً ، فقبلوا منه ، إلا واحداً من العلماء مع الأسف كان من علماء البدعة ، معتزليَّاً ، اسمه (عمرو بن عبيد) ، رفض و لم يأخذ شيئاً و نفض يده ، فقال الخليفة يخاطب العلماء :

كلَّكم يمشي رُوَيد
كلكم يطلبُ صَيد
غير عمرو بن عُبَيد !

فكان الوحيد الذي ثبت أنه لا يريد الدنيا أبداً ، فهي تحت قدميه و لا يمكن أن يجامل من أجلها ، فيكسب بتلك العزة هيبةَ الخاصَّة و العامَّة من أهل الدنيا و الرياسة و المال و الجاه و غيرهم .

و لهذا ، من القصائد المعروفة المشهورة التي تساق في هذا المجال ، قصيدة الإمام القاضي الجرجاني التي يقول فيها ، و هي قصيدة طويلة :

يقولونَ لي فيكَ انقباضٌ و إنَّما **رأوا رجلاً عن موقفِ الذُّلِ أحجَمَا
أرى الناسَ مَن داناهمُ هان عندَهُم**و من أكرمَتْه عزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا
و لمْ أقضِ حَقَّ العلمِ إن كانَ كُلَّمَا ** بَدَا طَمَعٌ صَيَّرتَهُ لِيَ سُلَّمَا
أ أشقَى بهِ غَرْسَاً وأَجْنيهِ ذُلَّةً ؟** إذَنْ فاتِّبَاعُ الجَهْلِ قَد كَانَ أَحْزَمَا !
و إنِّي إذا مَا فَاتَنِي الأمرُ لم أَبُت *** أقلِّبُ كَفِّي إِثرَهُ مُتَنَدِّمَا
إذا قيلَ هذا مَنهلٌ قلتُ قَد أَرَى *** وَ لكِنَّ نَفْسَ الحُرِّ تحتَمِلُ الظَّمَا
و لم أبتَذِل في خِدمَةِ العِلْمِ مُهجَتِي** لأَخدِمَ من لاقَيتُ لَكن لأُخْدَمَا
وَ لَو أَنَّ أَهلَ العِلمِ صَانوهُ صَانَهَم *** وَ لَو عَظَّموهُ في النُّفُوسِ لَعُظِّمَا

فالعالم الذي يجلس عند رجلٍ ، فإذا قام قام معه ، و إذا قعد قعد معه ، أي قيمة لعلمه ؟

و العالم الذي يدخل على قومٍ يسمعون ما لا يسوغ و لا يجوز ، فلما رأوه قاموا احتراماً و تقديراً له و أغلقوا مصدر الصوت ، فبدلاً من أن يفرح بذلك

اتجه إليهم يوبخهم و يعاتبهم و يقول لمن أغلق مصدر الصوت : لماذا تفعل ؟!
إذا كنت لا تريده فغيرك يريده ، دعه و ما كان عليه !!
هذا أيضاً أي قيمةٍ لعلمِه ؟

الصفة السابعة / الحكمـة

و قد قال ابن عبَّاس كما روى البخاري في صحيحه تعليقاً لكتاب العلم في تفسير قوله تعالى : { **وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ** } ، قال : أي حكماء فقهاء .
قال البخاري : و يقال الربَّاني الذي يربِّي بصغار العلم قبل كباره .
فالعالم الرباني حكيمٌ في علمه يضع العلم في موضعه ، و لا يصرف العلم لمن ليسوا له بأهل .
فمن الحكمة ألا يُقدِّمَ العلم لمن لا يناسبه ، فمثلاً عامَّة الناس يحتاجون إلى حكمةٍ في إيصال العلم الذي يجب أن يتعلَّموه ، فيُسَهِّل و يُيَسِّر العلم الشرعيَّ لهم حتى يمكن أن يصل إلى العوامِّ من الرجال و النساء و الكبار و الصغار ، و غير المتخصصين ، و تسهيله من خلال دروسٍ للعامَّة و كتيباتٍ و أشرطةٍ بحيث يكون العلم الشرعي متاحاً لكل إنسان يريد أن يتعلم ، بالتسهيل و التيسير و بعباراتٍ لبقةٍ ، وهذا لا بُدَّ منه .
لكن أيضاً ليس من الحكمةِ أن تأتي إلى هؤلاءِ العوامِّ فتُدخلُهُم في أمورٍ ليسوا بحاجةٍ إليها ، فتحشدهم مثلاً من أجل الرَّدِ على خطأِ العالِم الفلاني ، و تبدأُ

في الرَّدِ عليه بالآياتِ و الأحاديثِ و أقوالِ أهلِ العلمِ و غيرِ ذلك ، حتى لو كانَ أخطأَ فعلاً في اجتهادٍ لم يحالفه فيه الصَّواب .

لأنَّك إن حشدتَ ضمائرَ العوامِّ على هذا العالم ، فانتظر منهم كلَّ شيء ، انتظر أنَّ منهم من سوفَ يكونَ معك ، فينزل على ذلك الذي خطَّأتَه بكل قولِ سيئٍ ، وربما وصَلَ إلى تفسيقهِ أو تضليلِه أو تبديعِهِ و ربما تكفيرِهِ ، و ربما شتموهُ و انتقصوهُ و وقعوا في عرضِهِ و أنت السببُ في ذلك كلِّه ، و ماذا يهم العوام من شأنِ فلانٍ و علان ؟ إنما يهمهم العلم الموصلُ إلى الجنة ، و دعهم و ما هم فيه فهم لا يحتاجون إلى مثل هذا و لا ينتفعون به .

وإن حشدتهم إليه فتوقَّع منهم كلَّ شيء ، ربما كان بعضُهُم ضدَّك ولم يقتنع بما قلتَ، فأصبح في المجالس يتحدثُ عنك ويخطِّؤك وينتصرُ لذلك العالم ، فأحدث ذلك شرخاً عظيماً يصعب سدُّه وردمُه، وأصبح العوام أحياناً حُكَّاماً بين العلماء , فلان أخطأ وفلان أصاب ، لماذا ؟ لأنك جررتَه إلى هذا الميدان الذي هو ليس ميدانه ، وقد كان من الحكمةِ أن تضعَ العلمَ في موضعه .

و من الحكمة أيضاً ألا تصدم الناس بما هو أكبر من عقولهم ، فيكون هذا سبباً في ردهم و تكذيبهم ، و في الأثر : " خاطبوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يكذب الله و رسوله ؟! " قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

يقول الغزالي في إحياء علوم الدين : " كِل لكلِّ عبدٍ بمعيارِ عَقْلِه ، و زِن له بميزان فِهْمِه ، حتى تَسلَم منه – أي من قوله و إنكاره – و ينتفعُ بك ، و إلا وقع الإنكارُ لتفاوتِ المعيار " .

و كم من إنسان خُطِّئ و بُدِّع و ربما ضُلِّل و هو على حق ، لأن العالمَ تكلَّم بهذا الكلام في وسط قومٍ لا تَسَعُ عقولُهُم ما قال ، أو أن هذا الكلام بلغ إليهم من غير طريقه فخطَّأوه و هم المخطئون ، و ضلَّلوه و هم الضالُّون .

و من الحكمةِ أن يبدأَ بالأهمِّ قبلَ المهِم ، فيشتغل بالعلوم الضرورية قبل العلوم التحسينية ، فالعلم الذي يُضطَرُّ إليه اليومَ و يُخشى أن يفوتَ وقت الصلاة مثلاً قبل أن يتعلَّمَه ، فليُقَدِّمَه على علمٍ يحتاجه فيما بعد ، و العلم الذي يحتاجه ، ليُقَدِّمَه على بعض الأشياء التي هي من باب الكمال و لكنه قد لا يحتاج إليها .

و كذلك لا بد أن يكون حكيماً في عمله ، فمثلاً ليس مناسباً أن يعمل أمام الناس عملاً هو يعرف أنه مباح ، لكن الناس يستنكرونه و يستكثرون منه ، فعليه أن يُسِرّ ، ما دام يعرف أنه ليس فيه شيء من الشر ، لئلا يراه الناس فيستغربونه و يستنكرونه .

و لهذا من عجيب ما يقال أن عالماً سجنه أحد الطغاة في السجن و قال له لا بد أن تأكل لحم خنزير ، فتجلس على مائدتي و تأكله معي ، فأبى العالم ، فأتاه بعض الطباخين المخلصين من خدم الملك و قالوا له : سوف نضع لك لحم ضأن ، لكن كل من أجل أن تفتدي نفسك و تخرج من السجن ! فقال : **لا آكل !** قالوا : لماذا ؟ قال : **و من يدري هؤلاء العوام بأن ما آكله لحم ضأن ؟**

سيظنون أن ما أكلته لحم خنزير ، فيستحلوه بذلك أو على أقل تقدير يرون أني أكلت حراماً ، و أنا عالم يُقتدى بي في فعلي كما يُقتدى بي في قولي ، فلا أفعل ! و أصر على موقفه ، و هذا من الحكمة .

و من الحكمة أيضاً أن يكون حكيماً في تعليمه ، فيعطي كل أحد ما يستحق ، و يخصَّ بعضَ الناس بالعلم الذي يناسبهم ، و يبدأ بصغارِ العلم قبل كباره ، و بالأهم قبل المهم ، و يتدرج إلى غير ذلك مما سوف يأتي .

الصفة الثامنة / هضم الذات

أي التواضع و معرفة قدر النفس ، فلا ينتصر لنفسه و لا يؤذي غيرَه بقولٍ أو فعلٍ ، و لا يردَّ الحق إذا عرفه ، و لا يشتغلَ بالناس ، يقول ابن دقيق العيد لرجلٍ و قد رآه يطلب العلم فأعجبه : " **أنت رجلٌ فاضلٌ و السعيد من تموت سيآتُه بموته فلا تهجوَنَّ أحداً** " ، قال : فما تكلمتُ في أحدٍ قط .

فليس من صفة العالم الرباني الخصومة و اللجاج في كل شيءٍ و لغير سبب ، و لهذا نفى الله عز و جل في هذه الآية عن الأنبياء و الربانيين أنهم يدعون الناس إلى أنفسهم ، فتضمن ذلك أنَّهم لا يغضبون لحظوظهم الدنيوية و لا يسعون إلى رفعة أنفسهم على حساب الآخرين مثلاً ، و لا يغضبون لأن فلان ما التفت إليهم أو ما اتجه إليهم أو ما أشبه ذلك .

إنما غضبهم للحق ، و حتى غضبهم للحق هو غضب يتبعه حرص على التصحيح ، فهذا الإنسان الذي رأيت أنه أخطأ ، عامله بالحسنى رجاء أن

يعود إلى الحق ، فمن غضبك للحق ألا تظهر غضبَك ، بل أظهر له اللينَ تأليفاً لقلبه ، فإن رأيتَ أن عنده إمكانيةَ القبولِ و الأخذِ و الرَّدِ معك فلا تغضب عليه ، و إن رأيت أنه مبتدعُ مثلاً و أنه مصرٌّ و مجاهرٌ و معاندٌ للحق ، فحينئذٍ لكل مقامٍ مقال .

يقول الجاحظ : " **و أنا أحذِّرُك من اللِّجاج ، فإنه لا يكونُ إلا من خللِ القوةِ و من نقصانٍ قد دخل على التَّمكين ، و اللَّجوجُ في معنى المقلوب** " .

نعم ! هذا كلامٌ علميٌّ رصين ! اللَّجوج الذي تجده يرفع الصوت و يصرخ و يبهرج الكلام ، هذا مغلوب ! أما الإنسان الواثق الغالب تجده قويَّاً بالحُجَّة و لو كان صوتُه هادئاً و نبرتُه هادئة ، فلا يلتفت إلى هذه الأعاصير و العواصف التي تُثار هنا و هناك .

فهو لا يختار الرَّدَّ مثلاً من أجلِ أن يريحَ نفسَه أو يشبعَ غرورَه أو يُظهرَ الغلبةَ على خصمِه ، فهذا ليس من شيمةِ العالم الرباني .

يقول الإمام ابن قتيبة ناصحاً طالبَ العلم في كتاب (عيون الأخبار) : " **أحب أن تجري على عادةِ السلف الصالحينَ في إرسالِ النفس على السَّجِيَّةِ و الرَّغبَةِ بها عن لُبسَةِ الرِّياءِ و التَّصَنُّعِ ، و لا تستشعرْ أن القومَ قارفوا و تنزَّهتَ ، و سلبوا و تورَّعْتَ** " .

يعني لا تحسُّ أنَّك أنت كاملٌ و هم ناقصون ، و أنت ورعٌ و هم مخلِّطون ، و أنت متنزِّهٌ و هم قد اقترفوا بعضَ المعاصي ، لا تحسُّ بهذا ، إياكَ و الاستعلاء

، إياكَ و الكبر ، و هو" **بطر الحق و غَمَطُ الناس** "كما عرَّفه النبي صلى الله عليه و سلم .

تَواضَعْ تَكُن كالنَّجمِ لاحَ لناظِرٍ *** عَلَى طَبَقَاتِ الماءِ و هو رَفِيعُ
و لا تَكُ كالدُّخَانِ يعلُو مكانَه *** على طَبَقَاتِ الجَوِّ و هو وَضِيعُ

و من التواضعِ أن يقبلَ الإنسانُ الحقَّ و يتزوَّدَ من العلم ، و لهذا قال الله تعالى : { **وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ** } ، أي عالم و يدرس ، و قد سبق أن ذكرت أن في الآية قراءتان ، الأولى { **بما كنتم تعلَمون الكتابَ** } و هذه هي قراءة الجمهور ، و القراءة الثانية { **بما كنتم تعلِّمون الكتابَ** } أي تعلّمون غيركم ، و هذه بقراءة حمزة و عاصم و ابن عامرٍ و الكسائيُّ و خَلَف ، و هي قراءة سَبعِيَّة كما هو معروف ، و هي المثبَتَة في المصحف برواية حفصٍ عن عاصم .
إذن { تعلّمون } ، و أيضا { تَدْرُسُونَ } ، فأنت تجده شيخاً في حلقةٍ ، و تلميذاً في حلقةٍ أخرى ، و قد كان الإمامُ أحمدُ يركضُ و نعلاه في يديه في أَحَدِ شوارعِ بغداد ، فقال له أحدهم : " يا أبا عبد الله ! إلى متى تركض ؟ " قال : " **إلى الموت** " !

و في قصة أخرى قيل له فقال : " **مع المحبرة إلى المقبرة !** " .
فهم يتعلَّمونَ ويُعلِّمُونَ حتى الموت ، ولا يرون أنهم قد وصلوا ، لأن الله تعالى يقول : { **وَاعبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأتِيَكَ اليَقِيْنُ** } ، وقد سبق أن بيَّنَّا أن العلمَ

عبادةٌ ، بل هو من أعظمِ العبادات ، إذن من معاني الآية : واطلب العلم طاعةً لله حتىَّ يأتيك اليقين، لَكِن العلمَ النافعَ الموصلَ إلى الدار الآخرة .

الصفة التاسعة / العمــل

بعد الكلامِ عن أخلاقيات العالِمِ الرباني ، نأتي إلى العمل ، و العمل هو الثمرة ، حتى إن السلف رحمهم الله ما كانوا يُسمون الفقهَ إلا (العلمَ و العَمَلَ) ، كما قَرَّرَ ذلك و حَرَّرَهُ الإمامُ الغزاليُّ في (إحياءِ علومِ الدين) ، و الإمامُ ابن القيِّمِ و غيرُه من أهل العلم ، و ساق فيه الدارمي و غيره رواياتٍ كثيرةٍ عن السلف .

فلم يكن السلف يعرفون الفقهَ الذي هو القراءةُ في الكتب ، بل يعرفون الفقهَ إنسانٌ يعلمُ فيعملُ و يطبِّقُ و يُنَفِّذُ ، و لا فاصلَ عندَهُم بين هذا و ذاك ، و لهذا لما سُئِلَ أيُّوبُ السُّختياني رحمه الله – وهو من التابعين – : أيهما أكثرُ العلمُ اليومَ أم في الماضي ؟ فقال : " الكلامُ اليومَ أكثر ، لكنَّ العلمَ فيما تقدَّم أكثر " .

و هذا الكلام يصلُحُ أن يُطَبَّقَ على واقعِنَا ، فالكلامُ اليومَ أكثر ، و لكنَّ العلمَ الذي وَصَل إلى القلبِ و أثمَرَ العَمَلَ و الصِّدقَ هذا قليل .

و قيل للإمامِ أحمد في مجلسِ ذكرٍ فيه معروفُ الكرخي – و هو من الزُّهَّادِ العُبَّادِ الأتقياء ، و له في ذلك أخبارٌ معروفة ، ذكرها الذهبيُّ و ابن الجوزيِّ و غيرهما تراجع في مَظَنَّتِها – ذُكِرَ في مجلسِ الإمامِ أحمد فقال أحدُ الحضور : "

معروف قصيرُ العلم " ، فقال له الإمام أحمد : " أَمْسِكْ عافاكَ الله ، و هل يُرادُ من العلمِ إلاَّ ما وَصَل إليه معروف ؟! " أي لا نريد من العلم إلا النتيجة التي وصل إليها معروف و هي العمل .

و في حادثةٍ أخرى سأل عبدُ الله بن أحمد بن حنبل والدَه و قال له : " يا أبَتِ هل كان معروف معه شيءٌ من العلم ؟ " قال له : " **يا بني ! معه رأسُ العلمِ خشيةُ الله تعالى** " .

و في حديث أبي موسى الأشعري ، و هو في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : " **مثل ما بعثني الله تعالى به من العلم كمثل الغيثِ الكثيرِ أصاب أرضاً ، فكان منها طائفةٌ طيِّبةٌ قبلتْ الماء ، فأنبتتِ الكلأَ و العشبَ الكثير** "، فهذا العالِم العامِل المعلِّم , كالأرض الطيِّبة التي نزل عليها المطرُ فاهتزَّت وربَت وأَنْبَتَت من كلِّ زوجٍ بهيج ، فأثمَرَ العلمُ عندَهُ العَمَلَ و العبَادَةَ والدَّعوَةَ والصَّبْرَ ، " **و كان منها أَجَادِبَ – أرضٍ صَلْبَةٍ – أمسكتِ الماءَ فَنَفَعَ اللهُ بها الناسَ فشربوا منها وسقوا وزرعوا** " ، فهذا مثلُ إنسانٍ عندَه معرفةٌ بالنصوصِ لكن لا يعملُ بها ، مثلَ الأرضِ التي لا تستفيدُ من الماءِ لكنَّ النَّاسَ استفادوا فاغترفوا منها ، " **و كان منها أصابَ طائفةً أخرى إنما هي قِيعَانٌ لا تمُسِكُ ماءاً و لا تُنبِتُ كَلأً** " فهذا ما عنده معرفةٌ و ما عنده عملٌ ، و لا عبادة ، " **فذلك مثل من فَقِهَ في دينِ اللهِ فَعَلَّمَ و عَلَّمَ ، و مثلَ من لم يرفع بذلك رأساً ، و لم يقبل هدى الله تعالى الذي أُرْسِلْتُ به** " .

يقول بعضهم في وصف بعض الطلاب :

زَوَامِلَ للأسفارِ لا عِلْمَ عندَهُم ** بجيّدِهَا إلا كعِلْمِ الأباعِرِ

لَعَمْرُكَ ما يدري البعيرُ إذا غَدَا ** بأسفارِهِ أو رَاحَ ما في الغَرَائِرِ !

و قد وصفَ اللهُ تعالى أهلَ الكتابِ بقوله : { **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوراةَ ثُمَّ لم يَحمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحمِلُ أسْفَاراً** } .

إذن اسمع يا أخي كلمةً ينفعكَ الله تعالى بها ، هما علمان لا يضرك ما فاتك غيرهما :

العلم الأول / علمٌ ينفعكَ في الدارِ الآخرةِ و يُوصلِكَ إلى الجنة و يبعدك من النار ، فهذا تشبَّثْ و تَمَسَّكْ بِهِ .

و العلمُ الثَّاني / علمٌ ينفعك في الدنيا ، إما زراعةٌ أو صناعةٌ أو طبٌّ أو هندسةٌ أو غيرُ ذلك مما تنتفعُ به أو تنفعُ به غيرَكَ في الدنيا ، فعليكَ أيضاً بهذا العلم بقدر ما تحتاجُ أنت ، و بقدرِ ما يحتاجُ الناسَ ، و إن أخلصتَ النيَّةَ فأنتَ على خيرٍ عظيم .

أما ما سوى هذا و ذاك ، فلا تشتغلْ به ، فلان و علان ، هذا طلع و هذا نزل ، و هذا أصابَ و هذا أخطأ ، ماذا ينفعك من هذا ؟ قد تدخلَ الجَنَّةَ و أنت لا تدري بكثيرٍ من هذه الأمور، بل قد تبلغَ الدَّرَجَاتِ العُلَى منها و أنت لا تدري بكثيرٍ من هذِهِ المشاكلِ و القيلِ و القالِ و الأخذِ و الرَّدِ و الغادي و

الرائح ، فأمْسِكْ و اترُكْ كثيراً من الفضولِ التي يتشاغل بها الناس من مجرياتٍ و أحداثٍ و قضايا لا ينتفعون بها في دينٍ و لا دُنيا .

و لو أنها تنفعهم في دنياهم ، لقُلنا نعم ، لكنها لا تنفعُ ! إنما هي إزجاءٌ للفراغِ و نوعٌ مما يسمى أحياناً بالترفِ الفكرِيِّ !

كثيرٌ من الشباب يأتونني و يسألونني ، فأتأملُ هذا السؤال الذي سألني عنه هذا الشاب ، هل ينفعه ؟ لا ، لا ينفعه لا في الدنيا و لا في الآخرة ! إذن لماذا سألني عنه ؟

اشتغل يا أخي بعلمٍ ينفعكَ في دينكَ ، عبادةٌ ، دعوةٌ ، أو على الأقلِّ علمٌ ينفعكَ في دنياك ، تجارةٌ ، زراعةٌ ، أما هذه الأقاويلُ و الأغاليطُ و المسائلُ و الأمورُ – و لا داعٍ للتمثيل – ؛ انظر إلى أيِّ سؤالٍ تريد أن تطرحه ، هل هو ينفع في الآخرة ؟ لا ؟ فاتركه ، و هل هو ينفع في الدنيا ؟ لا ؟ إذن أيضاً فاترُكه .

أما إذا كان ينفعكَ في دنياكَ أو في أخراكَ ، فلا أحدٌ يلومُكَ على ذلك ، و لهذا تجد العالم الربانيُّ يعتني بالعلم الذي له ثمرة ، فيسأل عن ثمرةِ هذا العلم قبل أن يتشاغلَ به ، فلا يطرح مثل تلك الفرضيات التي ربما تقع و ربما لا تقع إلى قيام الساعة .. و لا يتشاغل بالجدل في مسائل محصورة و قد تكون مذكورة في بعض الكتب لكن لا يحتاج إليها الآن بحالٍ من الأحوال ، مع إننا نجد أن هناك مسائل موجودة الآن ، لكن لم يَسأل عنها و لم يتشاغل بها و لم يبَحث فيها .

كذلك تجد أن هذا العالم الرباني لأنه همَّه العمل بالعلم يعتني بصُلبِ العلمِ قبل فروعِهِ و مُلَحِهِ وطَرَائِفِه البعيدةِ التي قد تخفى على بعضِ كبارِ أهلِ العلم .

و مثل ذلك تتبُّعِ كلِّ جديدٍ من الكتب ، هذا ليس لازماً لأن فيه من إضاعة الوقت الشيءَ الكثير ، و بالمقابل قد لا يكون فيه أكثرُ من الطرفة و الملحة و الجمع ، و قد يُفتن الإنسان بجمعِ الكتبِ كما يُفتنُ الآخرُ بجمعِ المالِ و لا يستفيد منها علماً و لا عملاً ، و إن كان الجمعُ المعتدلُ مطلوباً و التخصُّصُ أيضاً في ذلك مطلوب .

و مثل ذلك الأُغلُوطات التي نهى الرسول صلى الله عليه و سلم عنها ، و هي صعابُ المسائل ، فالتشاغلُ بها مهلكة ، و بعض شباب الدعوة في بلادٍ إسلامية كثيرة حين أصغي إلى أسئلتهم أحياناً لساعات فأتعجب ، و تأتينا أسئلة في البريد أيضاً أو يسلمونني أوراق فيها أحياناً من 60 – 70 سؤالاً ، تتعجب من بعض هذه الأسئلة و ما فيها من التكلُّفِ و التدقيقِ و التنقيحِ ، و تجد أن معظم هذه المسائل من الأغلوطات التي نهى الله تعالى و رسوله صلى الله عليه و سلم عنها !

يعني ما وقع السلفُ الصالح على هذه العلوم و الأسئلة و لا أجابوا عنها و ما فهموها و لم تتهيأ لهم ، حتى انبرى لها هؤلاء فكشفوها و سألوا عنها ؟ إن هذا لشيء عجاب !

و قد تجد هذا الإنسان جاهلاً ببعض الأصول الكبار ، و غير متعمِّقٍ في علومٍ كان يجب أن يتعمَّقَ بها و أن يفهمها ، و لهذا يقول الإمام ابن الجوزيِّ رحمه

الله في (تلبيس إبليس) : " **لو اتَّسَعَ العمرُ لم أمنع من الإيغال في العلم ، غير أن العمر قصيرٌ و العلم كثيرٌ ، فالتشاغل بغيرِ ما صَحَّ يمنع من التشاغل بما هو أهم منه ، و لما تشاغل يحي بن معين فاته من الفقه الشيء الكثير ، و من أقبح الأشياء أن تجري حادثةً يُسألُ عنها الشيخ ، أمضى ستين سنة في طلب الحديث فلا يعرِف عنها شيئاً** " .

و أقول : قد يكون ما تشاغَلَ به يحي بن معين مما ينفعُ الناس ، و لكنَّ غيره كثيرٌ تشاغل بما لا ينفع من الغرائب و العجائب و الطرائف التي لا يحتاج إليها و التي تموت بموته ، و لهذا قيل في عيوب بعضهم مثلاً أنهم : " أبحث الناس عن صغيرٍ و أتركهم عن كبير !! " .

و أعرف شخصاً ينقِّبُ في المسائل و يوالي و يعادي و لكنه عاقٌّ لوالديه و العياذ بالله ! أي خيرٍ في هذا ؟؟

و قيل أيضاً في عيوب بعضهم : " أعلم الناس بما لم يَكُن و أجهلهم بما كان ! "

فليس المقصودُ بالعلمِ يا أخي بارَكَ الله فيكَ المفاخرةُ و المباهاةُ بالكلامِ و التصنيفِ و الشهرةِ و القيلِ و القال ، بل المقصود العمل ديناً و دنياً .

و يؤسفني أن أقول إن أمَمَ الكفرِ من اليهودِ و النصارى في بلاد الغرب اليومَ تشاغلوا بالعلوم الدنيوية فسخَّر اللهُ لهم من هذا الكونِ المادة ، فاستفادوا منها و انتفعوا أيما انتفاع فغاصوا في أعماق البحار ، و صعدوا إلى أجواء الفضاء و تقدموا في ألوان العلوم و استطاعوا أن يستفيدوا من ذلك في التسهيلات

الحضارية التي انتفعوا بها هم كثيراً و انتفع بها غيرهم و استطاعوا أن يحفظوا مكانتهم و يحققوا لأديانهم و عقائدهم و أفكارهم انتصاراتٍ عسكرية بسبب ما ابتكروه و اخترعوه ، و ذلك لأنهم تركوا التشاغل بغيره .

و قد أصابوا من جانب و أخطأوا من جانب ، أصابوا من جانب الاشتغال بهذه العلوم الدنيوية المفيدة و كان يجب على المسلمين – ولا زال – أن يشتغلوا بها و يحققوا أكثر مما حقَّقَ هؤلاء ، و لكنهم أخطأوا من جانبٍ آخر و هو أنهم تشاغلوا عن العلوم الأخروية الموصلة إلى رضوان الله تعالى ، فصدق عليهم قول الله عز و جل : { **يَعلَمُونَ ظَاهِرَاً من الحياةِ الدُّنيَا وهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هم غَافِلُونَ** } ، فهم لا نصيب لهم في الدار الآخرة ، إنما نصيبهم في هذه الدنيا ، أما الأمم المسلمة فأخشى أن تكون في بعض مظاهرها خسرت هذا و ذاك ، فهي لم تفلح في إعزازِ دينِها و لم تفلح في تطويرِ دنياها مع الأسف الشديد .

إذن العلمُ قرينُهُ العمل و هو ثمرته ، و العلمُ و العملُ اسمهما الفقه ، و في الصحيحين من حديث معاوية : " **من يُرِدِ اللهُ بهِ خيراً يفقههُ في الدِّين** " و أنت في صلاتك تقول : { **اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ** } ، و ما الصراط المستقيم إلا العلم و العمل بالهدى و دين الحق .

و لهذا قال الله عز و جل : { **وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا** } ، نزلت هذه الآية في أهلِ نجرانَ لما قالوا : " يا محمد ! هل تريدُنا أن نعبدَك ؟ "و النصارى عبدوا عيسى عليه السلام ، و قيل نزلت فيمن قال : "

يا رسول الله ! ألا نسجدُ لك ؟ "كما يسجدُ الكفار أو النصارى لزعمائهم ، فنهى الرسول صلى الله عليه و سلم و قال : " **لو كنتُ آمراً أحداً أن يسجدَ لأحدٍ لأمرتُ المرأةَ أن تسجدَ لزوجِها** " .

فاليهود و النصارى ضلُّوا : بتركِ العلمِ كما فَعَلَ النَّصارى ، أو بتركِ العَمَل كما فعل اليهود ، فأنت تقول { **اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ** } يعني صراط العلم والعمل ، { **صراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ * غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيْهِمْ** } و هم اليهود الذين تركوا العمل ، { **وَلاَ الضَّالِّينَ** } أي النصارى الذين تركوا العلم .

الصفة العاشرة / التعليـــم

والتعليم مهمة الأنبياء، يعلمون الناس في الكتاب ، والله وملائكته يصلون على معلم الناس الخير ، و ينبغي أن تعلم أن العلم كالمال ، لا يكنز ، ولا بد أن تؤدي زكاته ، ويختلف العلم عن المال في أن العلم ليس له نصاب حتى لو لم يكن عندك من العلم إلا آية واحدة أو حديث ، وجب أن تبلغها ، يقول النبي صلى الله عليه و سلم : " **بلغوا عني وَ لَو آيةً** " ، و في الحديث الآخر و كلاهما في الصحيح : " **نضر اللهُ امرءاً سمعَ منَّا حديثاً فبلَّغَه** " ، حديثاً واحداً !!

و سبل التعلم للربانيين لا بد أن يراعوا فيها ما يلي :

أولاً / أن يكونوا ربانيين حقاً ، أي يربون الناس بالعلم ، و يراعون في ذلك التدرج في العلم فلا ينقلون الإنسان طفراتٍ تجعله غير مُنضَبِطٍ في علمه و في تعليمه .

ثانياً / أن يراعوا التربية ، فليس العلم هو مجرد حقن الذهن بالمعلومات ! فقد تجد إنساناً كالبحر في معلوماته ، لكن شخصيته لم تُصَغ صياغةً سليمةً فيها الانضباط و التوازن و الأدب و التعقل و الجهاد ، فيكون علمه حجة عليه ، لأنه اغترَّ بهذا العلم و اغترَّ الناسُ به أيضاً ، لأنه إذا تكلَّمَ في المسائل أجاد و أفاد ، لكن ينسون أن هذا العالم لم يصحبه نورٌ و بصيرةٌ و تربيةٌ و مراعاةٌ للأحوال .

ثالثاً / بذل العلم للعامة بسهولة العبارة و وضوحها ، لأن المقصود ليس التقعر بالقول و إظهار القدرة على الناس ، بل المقصود تبليغ السامع ، و لهذا قال ربنا عز وجل : { **وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَومِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُم** } ، أي المقصود أن يصل العلم إليه و ليس شيئا آخرا وراء ذلك .

يقول الإمام الشاطبي رحمه الله : " و بهذا كان السلف الصالح يعملون في تبليغ الشريعة للمآلف و المخالف ، و من نظر في استدلالهم على إثبات الأحكام التكليفية علم أنهم قصدوا أيسرَ الطرق و أقربَهَا إلى عقول المخاطَبين و الطالبين من غير ترتيبٍ متكلَّفٍ و لا نظمٍ مؤلَّف ، بل كانوا يرمون بالكلامِ على عواهنهِ و لا يبالون كيف وقعَ الكلامُ في ترتيبه إذا كان سهلَ المأخذِ قريبَ الملتمَّس " .

فتراعي إذن التبسيط و التسهيل و التيسير ، و ليس من الضروري أن ترتب و تأتي بنقاط و مسائل و قيل و قال ، المهم أن يصل الحق إلى الناس و لو بأقصر طريق ، و لا يمنع أن الإنسان يخص أقواماً بمزيدٍ من العناية و الترتيب و التبويب ، لأنهم طلبة علم مثلاً أو مختصين أو ما أشبه ذلك ، و لهذا اختُصَّ الخطيبُ بضرورة تسهيل العلم للناس .

و مثله من يخاطب الجماهير ، قال ابن قتيبة رحمه الله : " ينبغي أن يكون الخطيب رابطَ الجأشِ ساكنَ الجوارح قليلَ اللَّحظ متخير اللَّفظ ، و لا يدقِّق في المعاني كلَّ التدقيق و لا ينقِّح الألفاظَ كل التنقيح ، و يكون في الكلام إجمالٌ و عمومٌ يتناسب مع عقولِ المستمعين " .

هذا و قد أطلت عليكم ، فأعتذر إليكم و أسأل الله تعالى أن يجعل هذا المجلس في ميزان أعمالنا و حسناتنا .

و السلام عليكم و رحمة الله و بركاته.

تمت المادة بحمد الله